

الفصل الخامس

الإضافات التي قدمها المفكرون الاجتماعيون العرب لتطور الفكر الاجتماعي العربي

المقدمة

- ١ - نشوء المجتمع.
- ٢ - العلاقة بين الفرد والمجتمع.
- ٣ - المورفولوجية الاجتماعية.
- ٤ - العمران البشري.
- ٥ - السكون والديناميكية الاجتماعية.
- ٦ - تصنيف المجتمعات.
- ٧ - طبقات المجتمع.
- ٨ - منهجية العلوم الاجتماعية.
- ٩ - دور القيم في التربية والسلوك.
- ١٠ - التغيير الاجتماعي.

obeikandi.com

المقدمة:

بعد الاطلاع على الأفكار والطروحات والنظريات والقوانين الاجتماعية العلمية التي عبر عنها المفكرون الاجتماعيون العرب خلال القرون التي عاشوها ابتداء من القرن العاشر الميلادي وحتى القرن الخامس عشر الميلادي، نستطيع أن نستنبط البدايات التي أصبحت فيما بعد حجر الأساس لعلم الاجتماع الكلاسيكي الذي نهض به الأوروبيون^(١).

إن ما جاء به علماء الاجتماع الغربيون ما هو بالحقيقة إلا امتداداً لما تطرق إليه المفكرون الاجتماعيون العرب في سياق نظرياتهم عن طبيعة المجتمع وقوانين ثباته وتحوله، وماهية النظم الاجتماعية وتكاملها والعلاقة بين الفرد والجماعة من جهة وبين الجماعة والمجتمع من جهة أخرى ومورفولوجية المجتمعات وتحليلها إلى عناصرها الأولية، والقيادة والمجتمع ومنهجية الدراسة والبحث في العلوم الاجتماعية ودور القيم في التربية والسلوك.

وقد عنى المفكرون الاجتماعيون العرب بدراسة ديناميكية الحياة الاجتماعية وحلّلوا عوامل التطور والطفرة التي أدت إلى التغير الاجتماعي السريع الذي لا يمكن أن تشهد أمة أخرى في تلك الفترة الوجيزة التي قطعتها لدولة العربية في وصولها إلى قمة مدارج الحضارة^(٢).

في هذا الفصل سنتطرق إلى الإضافات التي قدمها المفكرون الاجتماعيون العرب لتطور الفكر الاجتماعي قبل أكثر من خمسة قرون والتي يمكن أن تكون التراث الاجتماعي العلمي الذي يركز عليه علم الاجتماع العربي، هذا التراث الخصب الذي

(1) Hinkle, R. The Development of Modern Sociology, Random House, New York, 1963, p. 5.

(٢) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، علم الاجتماع، دراسة تحليلية في النظريات والنظم الاجتماعية، مطبعة التعليم العالي، بغداد، ١٩٨٨، ص ١٠٢.

اعتمد عليه المفكرون والمنظرون الاجتماعيون الغربيون في رسم المعالم الجوهرية لعلم الاجتماع المعاصر، بعد فصله عن بقية العلوم الاجتماعية الأخرى^(١).

وقد ساعد هذا التراث في تطور مناهج وطرق البحث الاجتماعي وإنضاج نظرياته وتراكم المعرفة في حقوله الأساسية، لذا والحالة هذه ينبغي على علماء الاجتماع العرب المعاصرين الرجوع إلى التراث الاجتماعي العربي الذي تجسد في أفكار ونظريات الرواد الأوائل والاعتماد عليه في تفسير حقيقة الواقع الاجتماعي بعد الأخذ بعين الاعتبار التغيرات والمستجدات التي طرأت على علم الاجتماع في ضوء المساهمات الحديثة لعلماء الاجتماع في العالم. كما ينبغي أن يكون التراث الاجتماعي العربي المرجع الأساسي للملامح الحديثة التي يتسم بها علم الاجتماع العربي.

الإضافات الأساسية التي قدمها المفكرون الاجتماعيون العرب

لتطور الفكر الاجتماعي العربي

١ - نشوء المجتمع:

ينطلق المفكرون الاجتماعيون العرب في تفسيرهم لأصل نشوء وتطور المجتمع الإنساني في تحليل حقيقة الاجتماع الإنساني، إذ يعتقدون بأن الإنسان حيوان اجتماعي بالطبيعة نظراً لسيطرة الغريزة الاجتماعية عليه سيطرة كاملة، وأن اجتماعية الإنسان هي التي تقود إلى اندفاعه نحو تكوين علاقات اجتماعية مع الغير وظهور أنماط مختلفة من التضامن كالضامن الاقتصادي والسياسي والروحي والقيمي... إلخ^(٢).

ففي حالة التضامن السياسي يستدعي دخول الأفراد في علاقات تعاونية تهدف إلى تمشية أمور المجتمع والسيطرة عليه والكفاح من أجل تحقيق أهدافه وطموحاته، ولهذا تظهر الدولة لتؤدي الوظائف الجليلة التي يحتاجها الأفراد والسيطرة على المجتمع سيطرة تؤدي إلى تحقيق أهدافه القريبة والبعيدة^(٣).

(١) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، الأوليات التاريخية لاهتمامات العرب بعلم الاجتماع، المورد، العدد الثالث، إصدار وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٦، ص ٦٠ - ٦٣.

(٢) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، رواد الفكر الاجتماعي، دراسة تحليلية في تاريخ الفكر الاجتماعي، مطبعة دار الحكمة، بغداد.

(٣) شرف الدين، خليل، ابن خلدون، بيروت، منشورات دار ومكتبة الهلال، بدون سنة طبع، ص

يرى ابن خلدون بأنه عندما تتحقق الضرورة الاجتماعية عند الناس تظهر السلطة في المجتمع^(١).

فالمجتمع في نظر ابن خلدون شيء طبيعي، وهو لهذه الصفات يخضع لقوانين عامة مثله في ذلك مثل الظواهر الفردية، وظواهر الحياة في الكائنات الحية.

ولهذا فإن الاجتماع الإنساني أمر طبيعي وضروري. وإن شعور الفرد برغبته في الحياة الاجتماعية إنما هو شعور فطري يدفعه إلى محاولة الاستئناس بأخيه الإنسان، كما أن النزعة المجتمعية تعتبر نزعة إرادية إلى جانب أنها عاطفية فطرية.

إن نقطة البدء في نظرية ابن خلدون هي أن المجتمع ظاهرة طبيعية من خلال توضيح الأسباب التي تجعل الناس يتحدون فيما بينهم مركزاً على التكامل الاقتصادي والأمن.

يوضح الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال حقيقة الإنسان ومدركاته بأنواعها ووظائفها وأثرها على عقل وتفكير الإنسان حيث قال: «اعلم أن جوهر الإنسان في أصل الفطرة، خلق خالياً ساذجاً لا خير معه من عوالم الله سبحانه وتعالى» والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله سبحانه وتعالى^(٢).

وأكد الغزالي على أن الإنسان لا يستطيع العيش لوحده بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره لأجل تحقيق البقاء من خلال النسل والتعاون والتحصن لتأمين الحماية اللازمة^(٣).

أما الفارابي فقد بدأ بحوثه الاجتماعية بتحليل حقيقة الاجتماع الإنساني والدوافع الضرورية إلى قيامه حيث يقول إن الإنسان حيوان اجتماعي بطبيعته، أي أنه يحتاج إلى أشياء كثيرة لا يستطيع الحصول عليها بمفرده، فهو لا بد له من التعاون مع أعضاء جنسه لكي يستطيع تحقيق الغاية من الاجتماع الإنساني، وهي تحقيق السعادة للإنسان^(٤).

(1) Shmidt, N. Ibn Khaldun, New York, Columbia University Press, 1930, p. 31.

(2) الغزالي، أبو حامد، المنقذ من الضلال، اللجنة الدولية للترجمة والروائع، بيروت، ١٩٥٩، ص ٤٥ - ٤٠.

(3) غيث، محمد عاطف (الدكتور) وآخرون، تاريخ التفكير الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ٤٢.

(4) الفارابي، أبو نصر، تحصيل السعادة، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨١، ص ٦٠ - ٦٢.

وإن تحقيق السعادة لا يتم عن طريق التعاون المادى فحسب، بل لا بد له أيضاً من التعاون الروحى أن الفكرى، لأن السعادة تتصل بأفضل القوى الإنسانية وأكملها وهى قوته العقلية^(١).

وينظر الفارابى إلى المجتمع الإنسانى من خلال حاجة الفرد للاجتماع، حيث قال: «يحتاج الإنسان فى وجوده وبلوغه نحو الكمال إلى أشياء كثيرة لا يمكن أن يقوم بها كلها وحده، بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشىء مما يحتاج إليه»، ولذلك لا يمكن للإنسان أن ينال إلا باجتماع جماعة كبيرة يقوم كل واحد من أفرادها بمساعدة الآخر بما يحتاج إليه^(٢).

إذن فالإنسان فى نظر الفارابى من الأنواع التى لا يمكن أن يتم لها بالضرورى من أمورها ولا تنال الأفضل من أحوالها إلا بالاجتماع والتعاون وخصوصاً الاجتماع الإرادى لا الغريزى الذى هو أساس هذا الاجتماع^(٣).

أما ابن الأزرق فقد أوضح فى مؤلفه «بدائع السلك فى طبائع الملك» بأن الاجتماع الإنسانى هو عمران العالم البشرى وهو أمر ضرورى لبقاء الإنسان، فالإنسان لا يمكنه العيش بمفرده دون التعاون مع أبناء جنسه، ولهذا يتم الاجتماع مع غيره لأجل تحقيق العيش السعيد، وإن انقسام البشر إلى بدو وحضر ناتج من حاجتهم إلى المعاش، حيث إن البدو يلجأون إلى الضرورى فقط، أما الحضرة فإنهم يتوسعون فوق الضرورى^(٤).

(١) الخشاب، مصطفى (الدكتور)، علم الاجتماع ومدارسه، الكتاب الأول، ط٢، لجنة البيان العربى، ١٩٥٦، ص ٦٠ - ٦١.

(٢) الفارابى، أبو نصر، كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، تقديم وشرح إبراهيم حزينى، منشورات دار القاموس الحديث، بيروت، ص ١٠.

(٣) مرحبا، محمد عبد الرحمن، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، مكتبة الفكر الجامعى، بيروت، ١٩٧٠، ص ٤٦٠.

(٤) ابن الأزرق، أبو عبد الله محمد، بدائع السلك فى طبائع الملك، الجزء الأول، تحقيق د. محمد عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٧٢، ص ٣٠ - ١٨٠.

٢ - العلاقة بين الفرد والمجتمع:

يعتقد المفكرون الاجتماعيون العرب بأن الفرد هو الوحدة الأساسية لتكوين المجتمع، ولولا الفرد لما ظهر المجتمع ولما استطاع أن يتطور وينمو ويتقدم في معالم الحضارة والمدينة، كما أن الفرد يحتاج إلى المجتمع لأن الأخير هو أساس طموحات وأمانى وأهداف الفرد، وأنه يزود الفرد بالمهارات والقابليات ويعلمه العادات والتقاليد والقيم ويلقنه اللغة التي يتكلم بها والدين الذي يؤمن به ويدافع عنه عندما تداهمه المخاطر والتحديات^(١).

ومن جهة أخرى يرى الفارابي بأن المجتمع يحتاج إلى أفراد يعتبرون بمثابة الوحدات العاملة التي تحقق أهدافه وتدافع عن مصالحه وتتخذ القرارات والإجراءات التي من شأنها أن تطور المجتمع وتدفع حركة تقدمه إلى الأمام. ويعتقد الفارابي بأن الفرد لا يمكن أن يأتي قبل الجماعة والجماعة لا يمكن أن تأتي قبل الفرد، ذلك أن الفرد مهم للجماعة والجماعة مهمة للفرد، وإن هناك درجة عالية من التكامل بينهما^(٢).

فالفرد لا يمكن أن يفضل على الجماعة باعتبار أن الأخيرة مصدر الأحكام والقوانين والعادات والتقاليد والأخلاق والقيم، كما أن الجماعة لا يمكن أن تفضل على الفرد باعتباره الوحدة الأساسية لبناء المجتمع، والغاية والوسيلة من الوجود الاجتماعي بما يتضمنه من عوامل مادية وروحية^(٣).

ويعتقد الغزالي بأننا لا نستطيع فهم الجماعة والمجتمع دون أن نفهم الفرد لأنه الوحدة الأساسية لبنائهما. وقد بذل الغزالي قصارى جهده في دراسة الإنسان ومعرفة كوامنه وتحديد الدوافع الأساسية لتحديد حركته ونشاطه^(٤).

(١) عبد الباقي، زيدان، التفكير الاجتماعي، نشأته وتطوره، القاهرة، مطبعة دار النشر الثقافية، ١٩٧٢، ص ٨٠ - ٨٢.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٨٣.

(٣) بدر، غسان زكي (الدكتور)، النظام الاجتماعي، دراسة موجزة في نظريات علم الاجتماع، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٣، ص ٦٠ - ٦٥.

(٤) غيث، محمد عاطف (الدكتور) وآخرون، تاريخ الفكر الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ٤٢.

وأوضح بأن دراسة الإنسان تقتضى معرفة النفس البشرية التى قسمها إلى قسمين أساسيين هما النفس العاملة والنفس العاملة، وأكد بأن القسم الأول هو أساس القوة العضلية للإنسان، أما القسم الثانى فهو الذى يحدد الذكاء عند الإنسان ويرسم صورته وأخلاقه وقيمه ومقاييسه، ويوضح طبيعة ميوله واتجاهاته ومصالحه وتفكيره وأهدافه^(١).

٣ - المورفولوجية الاجتماعية:

اهتم علماء الاجتماع العرب بمورفولوجية المجتمعات التى تنطوى على أشياء كثيرة كالتوزيع المهنى والجغرافى والعمرى والجنسى للسكان والعلاقة بين معالم البيئة الطبيعية ومعالم البيئة الاجتماعية والتوازن بين حجم السكان وحجم الموارد الطبيعية. ودرس ابن خلدون فى كتابه المقدمة كل ما يتعلق بسكان المجتمع البشرى من حيث صفاته البيولوجية والاجتماعية والعوامل المؤثرة فى زيادته أو قلته وهجرته من مكان لآخر، وتناول دراسة العلاقة بين المناخ وقيام الحضارة والمناخ والعادات والتقاليد والقيم مزاج الشعوب، وعرف ابن خلدون الظواهر التى تتعلق ببنية المجتمع (المورفولوجية الاجتماعية) وهى مجموعة من الظواهر التى تتصل بالبدن والحضر وأصول المدينة القديمة، وتوزيع أفراد الإنسانية على المساحة التى تشغلها والنظم التى تسير عليها المجتمعات فى هجرة أفرادها وكثافتهم وتخلخلهم والمسائل التى تتعلق بتخطيط القرى والمدن وقيام الأمصار والشروط التى تتعلق بمواقعها ومرافقها والوظائف التى تؤديها^(٢).

أما ابن بطوطة فقد درس أثر الظواهر الطبيعية والمناخية والأرضية فى قيم وعادات وأديان المجتمعات التى زارها واشتق قوانين اجتماعية كونية تفسر العلاقة بين المعالم الطبيعية والحضارات الإنسانية التى شهدتها المعمورة^(٣).

لقد ركز العلماء والمفكرين الاجتماعيين العرب عنايتهم إلى دراسة مظاهر التفاعل بين الإنسان والبيئة الطبيعية، وقد تعرضوا إلى إظهار أثر العامل الجغرافى على المظهر العمرانى فى أكثر من موضع ففسروا كثرة العمران وازدياد السكان بالظروف المناخية

(١) الغزالي، شيخ الأرض تيسير، دار الشرق الجديد، بيروت، ١٩٦٠، ص ٢٥٩.

(٢) عبد الباقي، زيدان، التفكير الاجتماعى، نشأته وتطوره، مطبعة دار الفكر العربى، ط ٣، القاهرة، ١٩٨١، ص ١٨٥.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق وتقديم د. على عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربى، القاهرة ١٩٦٥، ص ٧٠.

وتأثير المعتدل من الأقاليم والمنحرف منها فى ألوان البشر والكثير من أحوالهم^(١).

وأوضحوا بأن الأقاليم المعتدلة يكون سكانها أعدل أجساماً وأخلاقاً وأدياناً، وإن أشكال التجمع الإنسانى والنظم التى تسيطر عليها الجماعات البشرية فى إنشاء مواطن التجمع كالقرى والمدن والأمصار هى أساسها الأقاليم المعتدلة المناخ^(٢).

٤ - العمران البشرى:

يركز ابن خلدون انتباهه وجهوده الفكرية فى كتابه «المقدمة» على موضوع العمران البشرى موضحاً بأن الأجزاء والنظم الفرعية هى التى يتكون منها المجتمع، فابن خلدون يقارن بين الكائن الحيوانى والكائن الاجتماعى من ناحية البناء والوظائف، فالمجتمع بنظره لا يختلف عن الكائن الحيوانى الحى من أجهزة عضوية بيولوجية، فإن المجتمع الإنسانى يتكون أيضاً من نظم وبنى فرعية لها وظائف معينة ومتراطة بعضها ببعض كالنظام السياسى والنظام الدينى، والنظام العائلى والنظام التربوى. ومجموعة هذه النظم التى لها أهداف محددة تسمى بالعمران البشرى الذى خصص له ابن خلدون عدة فصول فى كتابه المقدمة، كما أن هذه النظم هى التى تعين أنشطة المجتمع وفى بعض الحالات ترسم المسيرة التطورية للمجتمع خصوصاً عندما يتطور أحدها تطوراً فجائياً وجذرياً، بحيث يؤثر على بقية الأنظمة وهنا يحدث ما يسمى بالتحول الاجتماعى. وتحدث ابن خلدون فى كتابه المقدمة عن الصنوف المختلفة للعمران البشرى فهناك العمران المتعلق بأثر البيئة الجغرافية فى ألوان البشر وأخلاقهم وطرق معاشهم^(٣).

وهناك العمران البدوى الذى يتخصص بدراسة طبيعة الشعوب البدوية ونشأتها وشؤونها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وعاداتها وتقاليدها وقيمها^(٤).

(١) الخشاب، أحمد (الدكتور)، التفكير الاجتماعى، دراسة تكميلية للنظرية الاجتماعية، دار

المعارف بمصر، ١٩٧٠، ص ٣٠٨ - ٣١٠.

(٢) شركين، فؤاد، تاريخ التراث العربى، ترجمة عرفة مصطفى، مراجعة مازن عماوى، الملكة

العربية السعودية، جامعة الإمام حمد بن سعود، جدة، ١٩٨٨، ص ٧٠ - ٨٠.

(٣) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، رواد الفكر الاجتماعى، مطبعة دار الحكمة، بغداد، ١٩٩١،

ص ٨٤ - ٨٥.

(٤) سعد، أحمد صادق تاريخ العرب الاجتماعى، بيروت، دار الحدائث، ١٩٨١، ص ٥٠ - ٦٠.

وهناك العمران الحضري الخاص بالبلدان والأمصار ومواطن التجدع الإنسانى، وهناك العمران الاقتصادى الذى يدور حول الموارد والثروات والمهن وأساليب كسب المعاش والصناعات ودورها فى استقرار السكان ورفاهية الحياة الاجتماعية. وأخيراً هناك العمران الدينى الذى يتخصص بالعبادات والأديان وأماكنها ودورها فى تهذيب نفوس البشر وتطوير سلوكهم وقيمهم^(١).

ويوضح ابن خلدون من خلال معالجته لمختلف مجالات العمران البشرى بإثبات حقيقة مؤداها أن الاجتماع ضرورى للنوع الإنسانى وإلا لم يكمل وجودهم. وضرورة الاجتماع ترجع إلى التعاون بين البشر لإنتاج مقومات حياتهم. ويضيف ابن خلدون بأن الحياة لا تستقر ولا يحدث الاجتماع والعمران بدون وجود القيادة السياسية التى تمارس القوة والسيطرة^(٢).

٥ - السكون والديناميكية الاجتماعية؛

يرى علماء الاجتماع العرب بأن المجتمع البشرى هو كائن ساكن ومتحرك فى آن واحد، فابن خلدون يشير إلى أن المجتمع البشرى خلال فترة زمنية محدودة هو كائن ساكن وسبب سكونه يرجع إلى تكامل المؤسسات أو النظم الاجتماعية التى يتكون منها، وأنه فى ذات الوقت كائن متحرك وديناميكي، خصوصاً إذا نظرنا إليه خلال فترة زمنية طويلة، فالمجتمع يتحول كما يعتقد ابن خلدون من مجتمع بدوى ريفى إلى مجتمع حضرى مستقر، كما أنه يمر بثلاثة أدوار أساسية تحقق سعادة الفرد وكمال المجتمع وازدهاره فى ميادين الحياة كافة.

ويرى ابن خلدون بأن المجتمع وحدة متكاملة تؤثر ظواهرها المختلفة بعضها ببعض الآخر. ولهذا عندما نريد دراسة ظاهرة معينة لا بد من الرجوع إلى المؤثرات المختلفة من بيئية ودينية للظواهر الأخرى.

(١) سالم، نادية حسن (الدكتور)، أصالة ابن خلدون، بحث مقدم إلى ندوة التراث الاجتماعى العربى، الخرطوم ٢٩ - ٣١ تموز، ١٩٨٥، ص ٥٠٤.

(٢) الساعاتى، حسن (الدكتور)، علم الاجتماع الخلدونى، قواعد المنهج، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٨٠ - ١٠٠.

إن ابن خلدون كان يدرس الظواهر الاجتماعية في حالة استقرارها وفي مظاهرها، أي أنه فطن إلى أهمية الدراسة الديناميكية (التطورية) إلى جانب عنايته بدراسة الظواهر من الناحية التشريحية أي الحالة التي هي عليها في مكان وزمان معينين^(١).

حيث كان يدرس عناصر الظاهرة وأجزائها ووظائفها وما إلى ذلك من مسائل الدراسة الاستاتيكية، ويدرس في الوقت نفسه تطورها والقوانين التي تخضع لها في هذا التطور^(٢).

فمن أهم الخواص التي تمتاز بها ظواهر الاجتماع الإنساني أنها لا تجمد على حال واحدة بل تختلف أوضاعها باختلاف الأمم والشعوب وتلف في المجتمع الواحد باختلاف العصور.

والظاهرة الاجتماعية تخضع لقوانين ثابتة مطردة كالقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية والرياضية^(٣).

ما تقدم يمكننا القول أن المفكرين الاجتماعيين العرب قد عنوا بدراسة ديناميكية الحياة الاجتماعية وحللوها عوامل التطور والطفرة التي أدت إلى التغير الاجتماعي السريع الذي لم يكن يشهده أمة أخرى في تلك الفترة الوجيزة التي قطعتها الدولة العربية في وصولها إلى قمة مدارة الحضارة^(٤).

٦ - تصنيفات المجتمعات:

لكل عالم اجتماعي عربي نظرية في تقسيم وتصنيف المجتمعات، فابن خلدون لا يقسم المجتمعات إلى أنواع مختلفة تبعاً لدرجة نضجها التاريخي وتقدمها الحضاري

(١) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، الجنود التاريخية لمناهج العلوم الاجتماعية عند العرب، مجلة المورد، العدد الثاني، إصدار وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد، ١٩٨٨، ص ٧٩ - ٨٠.

(٢) الخشاب، مصطفى (الدكتور)، علم الاجتماع ومدارسه، الكتاب الأول، ط ٢، مطبعة لجنة البيان العربي، الإسكندرية، ١٩٥٦، ص ٧٩.

(٣) عبد الباقي، زيدان (الدكتور)، التفكير الاجتماعي، نشأته وتطوره، مطبعة دار الفكر العربي، ط ٣، القاهرة، ١٩٨١، ص ١٨٧.

(٤) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، علم الاجتماع، دراسة تحليلية في النظريات والنظم الاجتماعية، مطبعة التعليم العالي، بغداد، ١٩٨٨، ص ١٠٢.

فحسب بل يشير إلى المعيار الأساسى الذى يعتمد عليه فى تصنيف المجتمعات، ويعطى الصفات الأساسية لكل نمط من أنماط المجتمعات ويتكلم عن ماضيه ومستقبله.

يعتقد ابن خلدون بأن هناك نوعين من المجتمعات: المجتمع الريفى أو البدوى والمجتمع الحضرى، والمجتمع غالباً ما يتحول من مجتمع لآخر، فالمجتمع البدوى يتميز بظاهرة العصبية وهبوط الكثافة السكانية وعدم التخصص فى العمل وهبوط المستوى المعاشى والصحى والثقافى والاجتماعى وسيطرة الدين على أنشطة الفرد والمجتمع، ومهنة الرعى وعلاقاته الاجتماعية قوية ومتماسكة.

أما المجتمع الحضرى فيتميز بارتفاع الكثافة السكانية وتنوع عناصر السكان وانتهاج نظام تقسيم العمل وارتفاع المستوى المعاشى والصحى والثقافى والاجتماعى وسيطرة الدولة على أنشطة المجتمع وضعف العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات، ويتميز بالاستقرار الجغرافى إذ يقطن أفراد داخل المدن والقصبات ويعتقد على الصناعة والتجارة والزراعة الحديثة^(١).

أما المعيار الذى يستند إليه ابن خلدون فى تقسيم المجتمعات فهو طبيعة الاستيطان الجغرافى ودرجة التقدم الحضارى التى يستطيع المجتمع بلوغها مركزاً على العصبية والقرابة المرتكزة على روابط الدم والروابط الاجتماعية، فرابطة العصبية والقرابة هى التى تميز المجتمع البدوى، ورابطة العلاقات الاجتماعية هى التى ميز المجتمع الحضرى. وإن ابن خلدون يميز بين المجتمعات المختلفة بناءً على طبيعة مؤسساتها الاجتماعية وعاداتها وتقاليدها وبيئتها الطبيعية والاجتماعية وأساليب معيشتها وأنماط وسائل ضبطها الاجتماعى^(٢).

إن نظام الفلسفة التاريخية الذى استعمله ابن خلدون فى دراسة المجتمع كان ينطوى على فكرة تقسيم المجتمعات فى العالم إلى أنواع مختلفة تبعاً لدرجة تقدمها الحضارى والاقتصادى والفنى، حيث قال إن العالم الاجتماعى يمكنه مشاهدة نوعين من

(١) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، علم الاجتماع، دراسة نظامية، مطبعة الجامعة، بغداد،

١٩٧٦، ص ١٠٦.

(2) Shnidt, N. Ibn Khaldun, New York, Columbia University Press, 1930, p. 30.

المجتمعات البشرية «الأنفة الذكر» وأن دراسة إحداهما لا تتم دون دراسة الآخر لأن كل منهما هو أصل للآخر^(١).

ويؤكد ابن خلدون على أهمية النظرية الاقتصادية في تقسيم المجتمعات، فالمهن التي يزاولها البشر هي التي تؤدي إلى تقسيمهم إلى مجتمعات مختلفة.

أما الفارابي فله نظرية شاملة يقوم بتصنيف المجتمعات على أساسها فهو يصنف المجتمعات البشرية إلى مجتمعات فاضلة ومجتمعات جاهلة. فالمجتمعات الفاضلة هي التي تكون على نمط واحد وتعتمد على مبدأ التعاون بين أفرادها وجماعاتها^(٢).

ذلك التعاون الذي يؤدي إلى الاجتماع البشري الذي يقود إلى الكمال والسعادة بالنسبة للأفراد والجماعات إضافة إلى أن المجتمع الفاضل يتمسك بالمثل والقيم التابعة من تعاليم الدين الإسلامي^(٣).

ويتكون المجتمع الفاضل من ثلاثة أنواع من المجتمعات وهي المجتمعات العظمى والمجتمعات الوسطى والمجتمعات الصغرى التي تمثل اجتماع أهل المدينة في جزء من مسكن أمة^(٤).

أما المجتمعات غير الفاضلة فيصنفها الفارابي إلى أنواع مختلفة تبعاً لطبيعتها وما تحمله من أفكار وقيم وما تعتقد به من طقوس وممارسات. وهذه هي المجتمعات الجاهلة والمجتمعات الضالة والمجتمعات الفاسقة ومجتمعات الإباحية... الخ، وهي التي لا يتوفر فيها التعاون الاجتماعي ولا تستطيع تحقيق السعادة للإنسان^(٥).

(١) ابن خلدون، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المتبدأ والخبر في أيام العرب العجم والبربر، ص ٣١ - ٤٣.

(٢) الفارابي، أبو نصر، آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق د. عبد الواحد وافي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٢٠ - ٣٠.

(٣) الفارابي، أبو نصر، أهل المدينة الفاضلة، تقديم وشرح إبراهيم جزيني، منشورات دار القاموس الحديث، بيروت، ١٩٧٦، ص ٩٠ - ٩١.

(٤) بور، دي، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٤، ص ١٧٩.

(٥) الفارابي، أبو نصر، السياسات المدنية، تحقيق فوزي مري النجار، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٤، ص ٦٠ - ٨٠.

أما المعيار الذي يعتمدُه الفارابي في تقسيم المجتمعات فهو معيار التمسك بالأخلاق الفاضلة التي تنبعث من أخلاقية وتعاليم الإسلام.

٧ - طبقات المجتمع:

اهتم علماء الاجتماع العرب الأوائل بدراسة البناء الطبقي في المجتمع إذ قسموا المجتمع إلى طبقات مختلفة وأوضحوا المقاييس الموضوعية والذاتية للانتماءات الطبقيّة وأشاروا إلى ظاهرة الحراك الاجتماعي من حيث وجودها أو عدم وجودها وأثرها في عملية التحول الاجتماعي^(١).

لقد قسم الغزالي المجتمع إلى ثلاث طبقات أساسية معتمداً في تقسيمه على المهنة التي يزاولها أبنائه، فهناك طبقة الحكام ورجال الدين التي تحتل موقع الصدارة بسبب المهام القيادية والروحية المقدسة التي تضطلع بها، وطبقة الجنديّة التي مهمتها الدفاع عن الدولة ضد الأخطار الخارجية، وأخيراً طبقة التجار والفلاحين والصناع التي تقع عليها مهام البيع والشراء والزراعة والصناعة^(٢).

وقسم إخوان الصفا المجتمع إلى ثلاثة طبقات هي طبقة الحكام والنبلاء وطبقة الأغنياء وطبقة الفقراء، ويرجع نشوء هذا النظام الطبقي إلى تفاوت لناس في الكفاءات والقابليات والميول والرغبات في أداء الأعمال والخدمات التي يحتاجها المجتمع، واختلاف طبقات الناس يسهل قيام كل طبقة بعمل معين ومن ثم تتعاون الطبقات الاجتماعية على تحقيق التكامل في الوظائف الاجتماعية.

إن اختلاف الناس على هذا الأساس الطبقي يعتبر حكمة ووظيفة، فالإنسان لا يستطيع القيام بالأعمال كافة، ولهذا فإن تفاوت الناس في طبقات مختلفة يساعد على تحقيق التكامل في الوظائف الاجتماعية^(٣).

(١) الغزالي، أبو حامد، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الحسنی، تحقيق فضلة شحادة، بيروت، دار المشرق، ١٩٧١، ص ١٠ - ٣٠.

(٢) غيث، محمد عاطف (الدكتور) وآخرون، تاريخ الفكر الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ٤٣.

(٣) الخشاب، مصطفى (الدكتور)، علم الاجتماع ومدارسه، الكتاب الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٥، ص ١٢٧ - ١٢٨.

أما العوامل المساعدة على الانتماءات الطبقيّة فهي الحسب والنسب والانحدار الاجتماعي للعائلة وطبيعة المهنة التي يمارسها الأفراد والصفات الشخصية والذكائية التي يتمتع بها الأفراد.

أما ابن بطوطة فيقسم طبقات المجتمع إلى ثلاثة أنواع هي طبقة النبلاء ورجال الدين والطبقة الوسطى وطبقة العوام، كما يضيف ابن بطوطة قائلاً بأن النظام الطبقي في الريف هو نظام مغلق لا يعطى المجال للفرد بالحركة الاجتماعية من طبقة إلى أخرى، بينما النظام الطبقي في الحضر هو نظام يكاد يكون شبه مفتوح، فبعض الأفراد لظروف معيشية يمكن أن يتقلوا من طبقة لأخرى.

ففي الوقت الذي يوجد فيه الحدود الصلة التي تفصل بين طبقة النبلاء ورجال الدين والطبقة الوسطى وطبقة العوام، يشاهد المرء درجة من المرونة الطبقيّة كانتقال ابن العوام إلى الطبقة الوسطى أو انخفاض ابن طبقة النبلاء إلى الطبقة الوسطى لأسباب تتعلق بتغير الظروف وظهور الملابس والمستجدات^(١).

أما ابن خلدون فنراه يربط بين مختلف العوامل التي تحدّد المكانة الطبقيّة من عوامل اقتصادية أو قرابية أو دينية أو عامل مراكز القوى، كما يرى أن الناس طبقات يفضل بعضها على بعض في الاستعداد الشخصي للتأثير في نفوس الآخرين وللإطلاع على الغيب كالسحرة وعاملى الطلسمات والمستجدات^(٢).

ويوضح ابن خلدون بأن هناك عاملاً آخرًا له أهمية كبيرة في تحديد المكانة الطبقيّة وهو المهنة، حيث يحدد المهن والصناعات وكيفية علو أحدها على الأخرى، ودنو كل منها على الأخرى، حيث يصنف الأمم بتفريق ما بينها وفق أطر الإنتاج، فيضع في المرتبة الأولى حياة الحضر مع مختلف الصناعات، ثم يأتي الزراع المجتمعون في القرى والمقيمون بالبلدان السهلية أو البلدان الجبلية، وأخيرًا يأتي البدو، وكذلك نراه يتكلم عن الفلاحة

(١) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، الأوليات التاريخية لاهتمامات العرب بعلم الاجتماع، مجلة المورد، المجلد الخامس عشر، العدد الثالث، ١٩٨٦، ص ٦٥.

(٢) فروخ، عمر (الدكتور)، موقف ابن خلدون من الدين ومن القضايا الدينية، أعمال مهرجان ابن خلدون، منشورات المركز القومي للبحوث الجنائية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٣٧٥.

والتجارة والصنائع وخاصة البناء والحياكة والطب والكتابة والغناء والحساب، بالإضافة إلى تصنيفه للقائمين بأمور الدين من القضاء والتدريس والإمامة والخطابة والأذان^(١).

ويذكر ابن خلدون إلى أن القائمين بأمور الدين لا تعظم ثروتهم، حيث إن القائمين بأعمال التدريس وما شابهها في نظره لا تضطر إليه العامة اضطراراً وهم بشرف مركزهم أعزة على الخلق، الأمر الذي لا يجعل جزاءهم المادى كبيراً بالنسبة للجهود التي يقومون بها.

٨ - منهجية العلوم الاجتماعية؛

استعمل المفكرون الاجتماعيون العرب الذين عاشوا في فترة القرون الوسطى كالفارابي والغزالي وابن خلدون وابن بطوطة مناهج علمية متعددة في البحوث والدراسات التي قاموا بها، استطاعوا من خلالها جمع وتصنيف وتحليل وصياغة الفرضيات والنظريات والقوانين الكونية المفسرة للظواهر والنظم والعمليات الاجتماعية التي اهتموا بها^(٢).

اعتمد المفكرون العرب المنهج التاريخي والمنهج المقارن والمنهج الاستقرائي وهذه المناهج كانت تقوم على أسس ومقومات معروفة.

إن المناهج العلمية المتبعة من قبل المفكرين الاجتماعيين العرب لها أساليبها المختلفة في الدراسة والتحليل، فالمنهج التاريخي يهدف إلى كشف الماضي والعوامل الجوهرية المؤثرة في الأحداث التاريخية والربط الجيد بين حادثة وأخرى، فعندما يستعمل المفكر الاجتماعي المنهج التاريخي في دراسة المجتمع فإنه يضطر إلى معرفة المراحل التاريخية التي مرّ بها المجتمع، حيث إن دراسة الماضي تمكن المفكر من فهم واستيعاب الحاضر^(٣).

(١) شرف، محمد جلال، نشأة الفكر السياسي وتطوره في الإسلام، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٢، ص ٢١٠.

(٢) التل، صفوان خلف (الدكتور)، العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية، دراسات في المجتمع العربي، اتحاد الجامعات العربية، عمان، ١٩٨٥، ص ٣٩٢.

(٣) الخشاب، أحمد (الدكتور)، التفكير الاجتماعي، دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٣٠٥.

إن المنهج التاريخي الذي اعتمده ابن خلدون في أبحاثه ودراساته الاجتماعية يبدأ بتحليل أصل وجود المجتمع وحتمية حركته وتطوره عبر الأجيال والعصور^(١).

كان الفارابي مفكراً يؤمن بالمنهج التاريخي العلمي القائم على الملاحظة والوصف والتحليل والنقد ومحاولة التفسير، ويشير إلى أن هناك قوانين تحدد مسيرة المجتمع وكيفية مروره بمراحل تاريخية مختلفة لها صفات معينة.

واعتمد الفارابي على المنهج المقارن أيضاً فهو أول العرب والمسلمين الذين اعتمدوا على المنهج المقارن، حيث قارن بين المجتمعات الكاملة والمجتمعات الناقصة، وبين المدينة الفاضلة والمدينة الجاهلة، واستعمل الفارابي المنهج الاستقرائي حيث اعتمد على استنتاج الحقائق والمعلومات من الأدلة والبراهين العلمية المتيسرة عنده^(٢).

اعتمد ابن خلدون في دراسته المنهج المقارن حيث أشار إلى ضرورة مقارنة الظاهرة بغيرها من الظواهر المرتبطة بها في المجتمع نفسه وفي غيره من المجتمعات واستفاد من هذا المنهج في تصنيف المجتمعات إلى أنماط مختلفة تبعاً للمهن التي تزاولها والحياة الاقتصادية التي تعيشها^(٣).

أما أسلوب الملاحظة فيرى ابن خلدون أن على الباحث أن لا يقبل شيء إلا إذا رأى ذلك أنه حق بعد أن يتأكد بوضوح أنه كذلك. ومعنى المشاهدة العلمية عند العرب رؤية وفحص ظاهرة موضوع الدراسة مع الاستعانة بأساليب البحث الأخرى التي تتلائم مع طبيعة هذه الظاهرة. ولا تنحصر المشاهدة في توجيه الحواس فقط، ولكنها تنطوي على عمليات عقلية وتدخل إيجابى من جانب العقل^(٤).

(١) بوتول، جوستون، ابن خلدون، فلسفته الاجتماعية، ترجمة غنيم عبدون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٣٠ - ٤٠.

(٢) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، الجذور التاريخية لمناهج العلوم الاجتماعية عند العرب، المورد، العدد الثاني، إصدار وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد، ١٩٨٨، ص ٨٣ - ٨٤.

(٣) الشكعة، مصطفى، مناهج التأليف عند العلماء العرب، قسم الآداب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣، ص ٥١.

(4) Moss, I. Sample Survey and The Administrative Process, International Social Bulléтин 15, 1953, p. 488.

وأخيراً اعتمد ابن خلدون على المنهج الاستقرائي، حيث يستطيع الباحث التوصل إلى النتائج النهائية عن طريق الاستقراء ويستخدمها كحجة علمية في استدلال استنباطي، حيث يوضح ابن خلدون بأنه بعد الانتهاء من جمع المادة حول الظاهرة يمكن للباحث استخدام الاستقراء للوصول إلى القوانين العامة التي تحكم الظواهر.

ويقتفى الغزالي المنهج الاستقرائي عند دراسته لموضوع التربية فهو لم يحدد دستور التربية وفلسفتها وأهدافها وصفات كل من المعلم والمتعلم فحسب بل يربط بين التربية والسلوك^(١).

أما ابن بطوطة فقد استعمل منهج المشاهدة والمشاركة بالمشاركة في دراساته الاجتماعية والأنثروبولوجية والجغرافية التي قام بها في كافة أجزاء الوطن العربي، وإن أفكار ابن بطوطة الاجتماعية لم تكن مشتقة من القراءات والكتب والمصادر، بل كانت مشتقة من مشاهداته وخبرته وتجاربه التي حصل عليها من رحلاته وأسفاره، حيث ربط بين الظواهر الطبيعية والمناخية والأرضية وعادات وتقاليد وأديان المجتمعات التي زارها وتمكن من اشتقاق قوانين توضح أثر الأرض والمناخ في قيام الحضارات الإنسانية.

ومما تقدم يلاحظ أن ابن خلدون كان يقصد من ولاد هذه القواعد المنهجية التي ذكرها في مقدمته تمحيص الأخبار وتصحيح الوقائع التاريخية، وكان يرى أن الطريقة المثلى لتحقيق ذلك هي أن يكون عالم التاريخ ملماً بطبائع العمران وأحوال المجتمع ليستطيع أن يحكم عما إذا كانت الوقائع موضوع بحثه تتفق مع ظواهر المجتمع وأحواله، أي يجب على المؤرخ قبل أن يفسر التاريخ ويعلله أن يلم بدراسة شؤون العمران من سياسية واقتصادية ودينية، حتى يستطيع في ضوء هذه المعرفة أن يصحح ما بين يديه من الحقائق التاريخية^(٢).

إن غرض المنهجية هو رغبة المفكر العربي تجريد العقل أولاً من الأخطاء والالتزام

(١) النشار، على سامي، مناهج البحث عند مفكرى الإسلام واكتشاف المنهج العلمى فى العالم

الإسلامى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٣٠٠ - ٣٥٠.

(٢) الشيبانى، عمر محمد التومى، مناهج البحث الاجتماعى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١، ص

٢٣٠ - ٢٥٠.

بالقواعد المنطقية التي يسير بمقتضاها العقل فى طريقه إلى كشف الحقائق وأساس هذا هو الملاحظة والتجربة والاستقراء .

٩ - دور القيم فى التربية والسلوك:

يؤكد علماء الاجتماع العرب على أهمية المبادئ والقيم الأخلاقية والسلوكية فى بناء وتقدم المجتمعات، كما يعتبرون القيم الاجتماعية الإيجابية من العوامل الأساسية التى تدخل فى عملية التربية والتكوين .

فهذه القيم يجب أن يتمسك بها المرءى سواء كان أباً أو معلماً أو مرشداً دينياً أو قائداً سياسياً لكى يستطيع أولاً أن يكون ذا شخصية مؤثرة تمكنه من تمرير القيم المطلوبة إلى الجيل الناشئ، ولكى يتمكن ثانياً من خلق جيل قوى مؤمن ومدرب يعتمد عليه لمجتمع فى نهوضه تقدمه^(١) .

ومعظم القيم التى يؤكد على أهميتها علماء الاجتماع العرب الأوائل هى القيم المشتقة من التراث الحضارى العربى الأصيل ومن الدين الإسلامى وشريعته السمحة كقيم البطولة والشجاعة والإيثار وقيم النزاهة والكرامة والاعتداد بالنفس وقيم الصدق والإخلاص فى العمل وتحمل المسؤولية واحترام الكبير والعطف على الصغير وقيم العفة والظهارة والشرف^(٢) .

ولم يشخص المفكرون الاجتماعيون العرب الأوائل القيم الاجتماعية الإيجابية فحسب، بل حددوا أيضاً طرق غرسها فى النفوس وكيفية تأثيرها على العلاقات الإنسانية والسلوك . فالسلوك فى نظرهم ما هو إلا تجسيد لطبيعة القيم التى يؤمن بها الفرد . ذلك أن السلوك الحسن إنما هو تجسيد حى للقيم الإيجابية التى يحملها الفاعل، والسلوك السئ أو القبيح هو تجسيد حى للقيم السلبية التى يحملها الفاعل، لذا نستطيع معرفة المبادئ وقيم وأخلاقية الفرد من خلال النظر إلى سلوكه وسيرته^(٣) .

(١) غالب، مصطفى (الدكتور) الغزالي، بيروت، مكتبة الهلال، ١٩٧٩، ص ١٣٠ - ١٤٠ .

(٢) ابن الأزرقي، أبو عبد الله محمد، بدائع السلك فى طبائع الملك، الجزء الأول، ليبيا، الدار العربية للكتاب، بدون سنة طبع، ص ٣٩٠ .

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٤٦٢ .

ويؤكد علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعى المعاصرون على نفس هذه الحقائق التى طرحها المفكرون الاجتماعيون العرب قبل أكثر من خمسة قرون^(١).

لقد حدد ابن الأزرق القيم الأساسية التى تساعد على استمرار الملك مركزاً على القيم التى تجلب لصاحبها القوة والعظمة والاحترام من قبل الآخرين، وإن أغلب هذه القيم مستمدة من الإسلام كالشجاعة والعفة والسخاء. وأوضح القيم غير الجيدة التى تؤدى إلى تدهور الملك وضعف الارتباط بين الحاكم والشعب^(٢).

١٠ - التغيير الاجتماعى؛

يعتبر ابن خلدون من أشهر علماء الاجتماع التاريخيين الذين يؤمنون بحتمية تغير المجتمع من غمط إلى آخر. فالمجتمع كالكاائن الحيوانى الحى يولد وينمو ويتكامل ويضعف ويموت^(٣).

إن السبب الرئيسى لهذا التغير هو ضعف العصبية والتضامن بين الأفراد وشيوع الرفاهية والرخاء والطمأنينة والاستقرار فى ربوعه وعجز الناس عن الدفاع عن أنفسهم. فى مثل هذه الظروف يتعرض المجتمع إلى العدوان والاحتلال فيتحول من شكل إلى شكل آخر، والمجتمع الذى يشهد مثل هذه الحالة هو المجتمع الحضرى. ذلك المجتمع الذى يكون فى حالة صراع دائم مع مجتمع البدو المحيط به^(٤).

إن الدولة تبنى على أساس التضامن وعدم التناحر، غير أن التضامن يأخذ بالضعف كلما مرّ زمن أطول على نشوء الدولة. وتكون الدولة متماسكة متكاملة فى مراحل نشوئها الأولى خصوصاً عندما يتوفر لها خضوع الأفراد وتمازج عليهم سلطة مطلقة، لكن الضعف والتدهور يتسرب إليها شيئاً فشيئاً كلما دارت عجلة التغير، وتعلم الحياة الحضرية على تفتيت الحكم، ذلك أن أهل الحضرة يركنوا إلى الحياة الهادئة

(١) حقى، ألفت محمد، مناهج البحث فى علم النفس، القاهرة، دار الفكر الجامعى، ١٩٨٦، ص ٢٠٠ - ٢٥٠.

(2) Krech D. and Crutchfield Individual in Society, New York, 1963, pp. 30-32.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، الجزء الأول، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٥٦، ص ٢١٤.

(٤) الوردى، على (الدكتور) منق ابن خلدون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بغداد، ١٩٧٢، ص ١٠٠ - ١٢٠.

والمستقرة، الحياة الخالية من الخشونة والاضطراب وعدم الاستقرار بينما يميل سكان البدو الذين يقطنون الصحارى المحيطة بالمدن إلى الخشونة والتوسع والاحتلال فيحدث نتيجة لهذه الأوضاع الصراع الأهوج بين سكان الحضر وسكان البادية، الصراع الذى يتهى بفوز قبائل البدو على الحضرة^(١).

ويتناول ابن خلدون دراسة حتمية التغير التاريخى للظواهر والنظم العمرانية، فالظاهرة العمرانية هى ظاهرة متبدلة ومتطورة على مر الزمن، لذا يقرر ابن خلدون فى تناوله لعلم التاريخ حقيقة هامة مؤداها أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال وكما يكون ذلك فى الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع فى الأنساق والأقطار والأزمنة والدول^(٢).

وهذه العبارة تدل على أن ابن خلدون يذهب إلى أن التغير والتبدل يقع فى العالم الطبيعى، كما يقع أيضاً فى العالم الاجتماعى، ولكنه يرجع سبب هذا التغير والتبدل إلى عامل سياسى، حيث يقول: «إن السبب الشائع فى تبدل الأحوال والعوائد التابعة لكل جيل تبعاً لتبدل عوائد سلطانه، فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم وخرجت من عوائدهم وعوائدها، خالفت أيضاً بعض الشئ وكانت للأولى أشد مخالفة ثم لا يزال التدرج فى المخالفة حتى يصل إلى المباينة بالجملة^(٣)».

مما تقدم يمكننا أن نوضح حقيقتين اجتماعيتين بالغتى الأهمية، الأولى تتمثل فى حقيقة كون التغير والتحول مرتبطين أساساً بالنظام السياسى، والحقيقة الثانية هى أن الاتصال الحضارى بين الدول يعد من أهم الأسباب لاختلاف العادات، غير أن هذا الاختلاف لا يحدث دفعة واحدة وإنما يشهد عملية تدرجية حتى يصل إلى النهاية^(٤).

(١) عمر، معن خليل (الدكتور)، نقد فكر ابن خلدون الاجتماعى، آفاق عربية، العدد الأول، السنة الرابعة، إصدار وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد، ١٩٧٩، ص ٥٧.

(٢) الجابرى، حمد عايد (الدكتور)، العصبية والدولة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٧١، ص ١٩٠ - ١٩٥.

(٣) الحسينى، محمد (الدكتور) وآخرون، دراسات فى التنمية الاجتماعية، مطبعة دار نشر الثقافة، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٣٣٨.

(4) Krishnas Way, K.S., Society and Change, Oxford University Press, 1977, pp.

وحدد ابن خلدون أطوار الدولة بخمسة أطوار تمر خلالها الدولة فى سلسلة متتابعة الحلقات تشبه تمامًا تطور الكائن الحى، فالطور الأول هو الظفر بالبغية وغلب الدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدى الدولة السالفة قبلها. . . والطور الثانى طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك، والطور الثالث طور الفراغ والدعة لتحصل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر إليه، والطور الرابع طور التنوع والمالمة، والطور الخامس طور الإسراف والتبذير.

وفى هذا الطور تحصل فى الدولة طبيعة الهرم ويستولى عليها المرض المزمع الذى لا تكاد تخلص منه، ولا يكون معه الشفاء إلى أن تنقرض. ولهذا فإن الدولة كائن حى يحيا ويموت له بداية ونهاية ويخضع لعوامل النمو والفناء^(١).

يضاف إلى ذلك أن المجتمعات يمكن أن تبقى فى مرحلة الطفولة أو فى مرحلة النضوج أو مرحلة الهرم فترة طويلة، وقد يختم مجتمع ما حياته فى المرحلة الأولى أو الثانية وقد يقاوم نهايته فى إحدى هذه المراحل. . . إلخ^(٢).

(١) وافى، على عبد الواحد (الدكتور)، مقدمة ابن خلدون، لجنة البيان العربى، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٣٦٠ - ٣٦٥.

(٢) عبد الباقى، زيدان (الدكتور)، التفكير الاجتماعى، دار الفكر الاجتماعى، الطبعة الثالث، القاهرة، ١٩٨١، ص ١٧٧ - ١٨٠.